

محاضرات إسلامية



سبيل

الدعوة الإسلامية

الدكتور
محمد أمين المصري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طبع باذن ورثة المؤلف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

محاضرات إسلامية

العبادة لله وحده

الأخوة في الله

عدم موالاة غير المؤمنين

المسؤولية

تبليغ الدعوة

الاعتزاز بالإسلام

حمية الدعوة

قلة تنفيذ الموقف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم وبعد :

فهذه هي السلسلة الثانية من دروس ومحاضرات فضيلة
الدكتور محمد امين المصري - رحمه الله - وكنا في السلسلة
الاولى قد قدمنا نبذة عن حياته ونضيفه هنا: ان الشيخ - رحمه
الله - كان من المعاصرين القلائل الذين جمعوا بين الاختصاص
بالحديث الشريف والدراسات التربوية الاجتماعية عند الغرب ؛
ومع هذا العلم جمع العمل، فقد زاووا الدعوة إلى الله حتى آخر لحظة
من حياته .

ونلخص الآن بعض ركائز افكاره التي تميز بها والتي كان يلج
عليها كاسباب للنهوض بالمسلمين :

١ - التربية : تربية المنزل والمدرسة والمسجد ، ويؤكد على
هذا الموضوع ولا يفتأ يذكره ويتأسف على تربية المسلمين الآن ،
ويقارن بينها وبين تربية الصحابة لاولادهم على الجهاد في سبيل الله .

٢ - إن أخطاراً داخلية أصابت المسلمين في نفوسهم وهي أشد فتكاً من الأخطار الخارجية ، فالرياح لاتلام إذا اقتلمت الشجرة النخرة . وإن هناك أفكاراً (ميتة) تسبب العجز والخور وعدم الفهم ، وهذه لابد من بيانها وتجنبها .

٣ - ابتلاء كثير من المسلمين بالأخذ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تسبب فهماً غير صحيح ، وبالتالي تسبب سلوكاً منحرفاً . وهنا لابد من تنقية التراث وارجاع المسلمين إلى المعين الصافي .

٤ - الجهاد : وهذا الموضوع هو محور احاديث الشيخ - رحمه الله - لأن الجهاد هو الذي يربي الأمة ويمحصها وينقي صفوفها ، وهنا تظهر البطولة وتستخرج الطاقات . وهذا الجهاد وهذا الإصلاح من يبدأ به ؟ لابد من قلة مؤمنة تنفذ الموقف وتكون هي رائد الإصلاح .

هذا ملخص لما ذكرناه سابقاً في مقدمة الجزء الأول (المسؤولية) . . . ونعود إلى موضوع التربية ، ما التربية التي يريد ؟ إنها التربية القرآنية . . . العيش مع القرآن واجواء القرآن والتفاعل معه كما تفاعل معه الجيل الأول ، وكما وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ : « كان خلقه القرآن » .

وقد كشف المؤلف عن بعض جوانب هذه التربية عندما القى دروساً بعنوان (مبادئ أساسية في القرآن) وهي موضوع هذا

الكتاب ؛ يستنبط منها الجوانب التي اصبح المسلمون يمرون عليها وهم في غفلة عن معانيها . وهكذا يكون الاصلاح دائماً : يرفع الحجب ، ويزيل الرين الذي حصل للقلوب ليعود بالناس إلى الإسلام الذي نزل على محمد ﷺ .

وقد ابتدا هذه الدروس بموضوع العبودية لله ، إذ انها القضية الاولى التي يكررها القرآن الكريم حتى إذا رسخت في النفوس آتت ثمراتها المطلوبة ، لأن اعتراف الانسان انه عبد لله خاضع له ويتلقى منه ، يزيل عنه صفة التكبر واستعباد اخيه الانسان . فالحكم لله وحده ، ودور المسلم هو دور المنفذ لإرادة الله وشرعه . وما صراع المؤمنين مع الكفار إلا لانقاذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وازاحة الطواغيت الذين يمثلهم فرعون (ما علمت لكم من إله غيري) (١) .

ومن ثمرات هذه العبودية : أن المسلمين كلهم اخوة يتناصرون ويتعاطفون ، تربطهم رابطة العقيدة ، وهي رابطة قوية دائمة، بينما غيرهم يرتبطون بروابط ضعيفة زائلة ، ومن نتائج هذه الاخوة : المجتمع الاسلامي المتكافل المتعاون على البر والتقوى ، وان الموالاة بين المؤمنين فقط ، فالؤمن لا يوالي اعداء الله بنصرة او محبة ، وهو مع هذا يقيم العدل فيهم .

(١) القصص : ٣٨

والفرد المسلم له شخصيته المستقلة لا يتبع غير الكتاب
والسنة . . . وهكذا ربي الرسول ﷺ أصحابه تربية القادة لآتية
العبيد ، فليس المسلم بالمستكبر عن عبادة الله والخضوع للحق ،
ولا تفنى شخصيته وتذوب في شخص إنسان مثله .

والمسلم يعتبر نفسه مسؤولاً مسؤولية شخصية عن هذا
الدين يبلغه بالطرق الشرعية الصحيحة ، وفي سبيل ذلك يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو يحب الخير للناس كما قال عبداً الله
ابن مسعود رضي الله عنه : « كنتم خير أمة تجرون الناس إلى الجنة
بالسلاسل » ، وذلك بسبب الأمر بالمعروف وإزاحة الطواغيت
الذين يتخذون عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً .

والمسلم يرى أنه مكلف بحماية هذا التبليغ وذلك بالجهاد في
سبيل الله ، وهنا يضحي المسلم بنفسه في سبيل نصرته هذا الدين ،
وعن طريق هذا الجهاد سيدخل الناس في دين الله أفواجا . . . وهذا
خير لهم وإن كانوا لا يعلمون . . .

وإنما يركز فضيلة المؤلف - عليه رحمة الله - على الجهاد
في سبيل الله لأنه يعلم أن هذا الأمر العظيم من سنن الكون :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن
الله ذو فضل على العالمين » (١) .

(١) البقرة : ٢٥١

فالحياة تركد وتاسن إذا لم يكن هناك جهاد لارجاع الناس
إلى جادة الصواب .

ويلاحظ في هذا الترتيب لبعض المبادئ من كتاب الله انه
ترتيب بنائي يقوم على قاعدة صلبة في العبودية لله وحده . كما
يلاحظ حرص المؤلف - رحمه الله - على الرجوع بالمسلمين إلى
الكتاب والسنة وتنقية اذهانهم مما علق فيها من اوضاع الجاهلية
والفهم غير الصحيح لآيات الكتاب الحكيم . . مما أدى بهم إلى
الذل والهوان .

واخيراً نرجو أن يكون لما ننشر لفضيلته من محاضرات ودروس،
اثر طيب في توعية المسلمين والنهوض بهم والله الموفق .

الناشر

١٠ محرم ١٤٠٠ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . .

أما بعد :

فلا بد للمسلم إذا أراد أن يسير في الطريق السوية ، أن يفهم سبيل دعوته وأسسها ومبادئها مستقاة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ ، وآيات الله في الآفاق والأنفس .

وسنعرض في هذه الصفحات بعض هذه المبادئ الأساسية لعلها تنير الطريق لمن سعى وأخلص السير في طريق الدعوة إلى الله .

العِبَادَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

قال تباركت أسماؤه : « حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكانما خرّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الرياح في مكان سحيق » (١) .

في فطرة الانسان تطلع إلى الحق ونزوع إلى الخير ، وفي جيلة هذا الانسان ميل للسجود للذي برأه والاعتراف له جل شأنه بالوحدانية والتفرد في ملكه والقهر والسيادة .

وثمره هذا الاعتراف الاذعان لخالق الكون والخضوع لأمره وألا يرى المخلوق لنفسه سيادة على هذا الكون فليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويطلب عبادة الناس له .

وهذا المبدأ هو الذي جاء به الأنبياء جميعاً ، وبعثت الرسل من أجله إنه : دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ليخرجوا الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ولقد كان نداؤهم جميعاً نداءً واحداً : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (٢) . ولكن أكثر الناس عتوا عن أمر ربهم وعظم لديهم أن يعبدوا إلهاً واحداً .

(١) الحج : ٣١

(٢) هود : ٥٠

لقد كان أكثر هؤلاء معترفين لله جل شأنه بأنه الخالق الرازق مالك الملك بيده الخير، وكانوا على رغم هذا كله يستكفون عن عبادته وحده عناداً واستكباراً . قال تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل أفلا تذكرون ! قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . قل أفلا تتقون ! قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأنى تسحرون ! » (١) .

لقد عظم على كثير من الناس أن يعبدوا الله وحده لأن ذلك يخرجهم من سلطانهم على الناس .

إن الانسان - من بين المخلوقات جميعها - أبى إلا أن يقوم في وجه أخيه الانسان يستعبده ويستذله ويسخره لطاعته وخدمته ويدعي الالهية فوقه ، يدفعه إلى ذلك نهمه إلى السلطان وجشعه إلى الاستعلاء . ولقد كانت دعوى الألوهية ضروباً وألواناً ، فمن الناس من ادعى الالهية من غير استخفاء ولا موارد وكان فرعون مثلاً لهؤلاء إذ نادى بقومه : « أنا ربكم الأعلى » (٢) وقال : « ما علمت لكم من إله غيري » (٣) ، وكان من هؤلاء النمرود الذي حاج ابراهيم وادعى أنه يحيي ويميت .

(١) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

(٢) النازعات : ٢٤

(٣) القصص : ٣٨

ومن الناس أناس يدعون أنهم وحدهم القادرون على فهم الكتب المنزلة من عند الله يُحَلِّثُونَ فيها ما يشاؤون ، وقد قال تعالى في شأنهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » (١) .

وأشد هذه الأصناف خطراً اليوم أصحاب المذاهب الجديدة الذين يشرعون للناس ظمناً تغاير شريعة الله ويدعون إلى مبادئ تحاد مبادئ الله ، وإن كثيراً من المثقفين اليوم لم يعودوا يخذعون بمثل الدعوات القديمة والوثنيات البائدة ولكن دعوات الوثنية الجديدة قد وجدت سبيلها إلى كثير منهم وإلى كثير من عقول أبناء المسلمين . . .

ولقد تطورت معاني استعباد الانسان للانسان واتخذت في الأيام الاخيرة مظهر العلم ولبست لبوس البحث الحر وادعت أن الحقائق العلمية تؤيدها . وأشد أنواع وثنية هذا العصر : وثنية الشيوعية ووثنية الفاشية والنازية .

أما الأولى فقد كفرت بالله وجحدت أن للانسان روحاً ، وآمنت بالمادة وحدها وادعت أنها تريد أن ترفع الظلم عن الانسان وأن تنصف البائس الفقير وتأخذ للعامل المظلوم حقه من صاحب العمل الظالم فكانت أشد ظلماً للانسان من كل ما عرف الانسان من ظلم ، وسمحت للوصول إلى ما تدعيه بتحكيم عدد يسير من الناس - هم رجال الحزب الحاكم - برقاب مئات الملايين من

(١) سورة التوبة - الآية ٣١

الناس يسوقونهم بالسوط والعصا والحديد والنار إلى عبادتهم
والخضوع لآرائهم والاذعان لتشريعاتهم شاؤوا أم أبوا .

يقول (ميلوفان جيلاس) الذي اعتنق المبدأ الشيوعي وصعد
سلم الكفاح في سبيله درجة بعد درجة حتى أصبح نائباً لرئيس
الجمهورية اليوغوسلافية فترة طويلة من الزمن ، ثم رأى بعد كل
هذا ما دعاه إلى الانسحاب من الحزب حين لمس ما يختفي وراء
النظرية الماركسية من تهافت فكري وظلم شامل وبغي ، ونجتزىء
ههنا كلمة واحدة من كتابه الذي ألفه ليثبت تناقض الشيوعية
ووقوعها في أشد أنواع الظلم الاجتماعي الذي ادعت أنها كافحت
لائقاذ الناس منه .

يقول جيلاس: «أما لينين فقد مات وهو زعيم ثورة من أكبر
الثورات ولكنه مات كديكتاتور بدأت الطقوس تنسج حوله ،
وأما ستالين فقد مات بعد أن حول نفسه إلى إله » .

أما دعاة النازية والفاشية فهم اتباع موسوليني وهتلر
يتبعونهم حذو القذة بالقذة . يقول موسوليني : « الفاشستية
هي قدر الأمة الإيطالية » ويقول : « إن القدر الذي حملنا رسالة
الفاشستية أعطانا الحق في أن نأمر بقوة وتتصرف بقسوة » .

ويقول متبعوه : « ان عقيدتنا لا يمكن الوصول إليها بالعقل
ولكن بالايمان وحده » . فهي إيمان بلا عقل وبلا بصيرة ،

والغرض من ذلك كله انتزاع حرية العقل وانتزاع حرية الناس ليكوتوا اتباعاً لمن لا يؤمن بالله • ولا ينجي الناس من كل هذا إلا الرجوع إلى فطرتهم النقية ليعبدوا إلهاً واحداً ما لهم من إله غيره • قال تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » (١) •

* * *

(١) الحج : ٢١

الأخوة في الله

قال تباركت اسماءؤه : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير » (١) .

ليست الاخوة ههنا قائمة على الاشتراك في الأرض أو الاشتراك في الوطن أو الاشتراك في الجنس أو الدم أو العرق ولكنها الاخوة القائمة على المشاركة في المبدأ والعقيدة . وليست الدولة التي أنشأها الاسلام دولة أمة أو شعب أو أرض أو وطن أو جنس أو دم أو عرق ، ولكنها دولة الفكرة .

ولقد علم أعداء الاسلام هذا وعلموا ما لأثر العقيدة في نفوس المسلمين ، ورأى أعداء المسلمين أن المسلمين في جميع أقطار العالم تجمعهم جامعة واحدة . واعداء المسلمين لا يخشون أمراً مثل خشيتهم اجتماع المسلمين ووحدة كلمتهم

لقد تعاونت الصليبية والصهيونية وتعمل كل واحدة منهما في ناحية ، هذا إلى جانب عوامل داخلية . . فإذا بعقيدة جديدة تنبت في بلاد المسلمين وإله جديد يعبد في الأرض يكس الموحدة

(١) سورة الحجرات - الآية ١٣ .

ويفتت الجماعة ، وإذا بعبادة جديدة يستوردها بعض عملاء العرب من ديار الغرب ينادون بها في ديار الاسلام ويزعمون أنها ديانة العصر الحديث والمدنية الجديدة ، إنها عبادة القوم وتقديس الأمة . ينقل الاستاذ الندوي في كتابه « العرب والاسلام » عن مقال للاستاذ محمود تيمور في مجلة العالم العربي العدد (١٧١) ما يلي :
لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة . . . إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي .

« كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذباً » (١) .

وإنه لأمر عظيم ما عرف التاريخ له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، ما عرف التاريخ دولة أسست كما أسس الاسلام دولته على مبدأ الاجتماع على الفكرة والعقيدة . فكل من قبل دعوتنا وآمن بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالاسلام ديناً ، وصلّى صلاتنا وتوجه إلى قبلتنا . . . فله ما لنا وعليه ما علينا سواء أكان أبيض أم أسود . . . وسواء أكان عربياً أم فارسياً أم هندياً . . .

يقول فتحي عثمان في كتابه « دولة الفكرة » :

« دولة الفكرة هي حلم البشرية ، إنها دولة لاتقوم على حتمية ظروف الأرض أو الدم . . ولكنها تقوم على اختيار الانسان بوعيه الكامل و ارادته الحرة .

(١) سورة الكهف - الآية ٥ .

وبالنسبة للفكرة ، كل أرض سواء ، وكل سلالة سواء ..
إنها تخاطب الفكر في أي انسان وكل انسان .

ولقد كانت الدولة التي أقامها رسول الاسلام في المدينة
مثلاً حياً مبكراً للدولة المثالية في التاريخ لم تكن دولة مكة أو
قريش .. ولا دولة المدينة أو الأوس والخزرج .. بل كانت دولة
الإسلام المعروض على كل انسان .

دولة التقى فيها المهاجرون والأنصار مع صهيب الرومي
وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وكان هذا اللقاء لقاء تاريخياً
فريداً ...

فكانوا جميعاً أعضاء مؤسسين ومواطنين أصيلين في هذا
المجتمع وهذه الدولة ، وهكذا تحقق الحلم المنشود في ذلك الزمن
البعيد » .

وإنه لأمر عظيم يقف التاريخ أمامه مشدوهاً أن يرى الأمة
المغلوبة المقهورة التي كانت قبل لحظات تسفك دماءنا وتستبيح
حرماتنا - حين تنقلب إلى فكرتنا واعتناق مبدئنا - ، تغدو لها
مالنا وعليها ما علينا ويصبح الجميع إخوة . ما عرف التاريخ في
الفاحين مثيلاً لهذا . قال تعالى :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَاتِكُمْ فِي الدِّينِ
وَنَفَصِلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (١) .

(١) سورة التوبة - الآية ١١

عَدَمُ مَوَالِيَةِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يآلونكم خيالا وادوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » (١) .

إن هذه الآية الكريمة دستور هام وقاعدة أساسية تفتح عيون المسلمين وتوقظ قلوبهم على عدو شديد الخطر عظيم الأثر يعمل داخل بلاد المسلمين وبالقرب منهم ، وإذا واتته الفرصة ضرب ضربته وأبدى صفحته وكشر عن أنيابه ، ولم يرع في المسلمين إلاّ ولا ذمة .

والآية الكريمة وثيقة الصلة بما قبلها وما بعدها من الآيات، وهي من مثل قوله تعالى :

« إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين » (٢) .

هذه تنهى عن الطاعة مطلقاً ، والآية التي نحن بصدد تفهمها وتدبر معانيها تنهى عن اتخاذ بطانة من غير المسلمين ، وهذا الاتخاذ

(١) آل عمران : ١١٨

(٢) آل عمران : ١٠٠

وسيلة" ذات خطر كبير في التأثير في المسلمين وإيقاعهم في أحاييل قد تؤدي بهم إلى الشر الكبير . فآية النهي عن الطاعة عامة تشمل كل وسيلة تؤدي إلى الطاعة . والآية الكريمة - هذه - خاصة في حال معينة قد تؤدي لا إلى حمل المسلمين إلى طاعة الكافرين فحسب بل قد تؤدي إلى ضياع سلطانهم وتمزق أمرهم .

وفي سبيل إيضاح شيء من إعجاز هذه الآية الكريمة - التي تحذر المسلمين من الطوائف المعادية للمسلمين عامة منذ بزغ فجر هداية بعثة محمد عليه الصلاة والسلام - نقل شيئاً يسيراً من عمل اليهود ومكرهم في العالم كله فضلاً عن العالم الاسلامي .

يقول مؤلف كتاب « الدنيا لعبة إسرائيل » - وهذا الكتاب جدير بالمطالعة مؤلفه ضابط أميركي عمل في المخابرات الأميركية زمناً طويلاً وجاب البلاد طولاً وعرضاً وهو يقول إن أبحاثه استمرت أربعين عاماً حتى وصل أخيراً إلى لب الحقيقة ، والكتاب مترجم إلى العربية - بشأن القضية الفلسطينية في أول ظهورها (ص ١٩٥): « وضعت الصهيونية السياسية نصب عينها تحقيق الهدفين التاليين :

١ - اجبار دول العالم على الاعتراف بالوطن القومي لليهود في فلسطين وبالتالي إنشاء دولة مستقلة تكون هي وطن المؤامرة وقاعدة المستقبل .

٢ - تأمين السيطرة على ثروات المنطقة بأكملها .

كانت الخطوة الاولى اصدار وعد بلفور عام ١٩١٧ م الذي تعهدت بموجبه انكلترا وفرنسة والولايات المتحدة بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وتلا ذلك فوراً بدء التنفيذ العملي : فأصدرت الأوامر إلى الجنرال النبي قائد الجيش الانكليزي في الشرق الأوسط بطرد الأتراك من الشرق الادنى واحتلال الأراضي المقدسة - أي فلسطين - وقد قامت السلطات البريطانية بعملية غادرة فتفادت الكشف عن تصريح بلفور حتى تمت جميع العمليات الحربية بمعونة العرب .

أما المرابون المليون اليهود فما أن تم احتلال فلسطين حتى طلبوا من الحكومة البريطانية تعيين لجنة صهيونية في فلسطين وتعيين مندوبيهم السياسيين أعضاء لها ، على أن تكون مهمة هذه البعثة تقديم النصح للجنرال كلايتون الحاكم العسكري لفلسطين . وقد باشرت هذه اللجنة عملها بالفعل في آذار ١٩١٨ وكان أعضاؤها الرئيسيين :

الكولونيل أورمبسي رغور : الذي عين فيما بعد مديراً لبنك ستاندارد في جنوب إفريقيا وهو البنك الذي يسيطر على مناجم الذهب والماس في جنوب إفريقيا . كما أنه هو الذي يمول أيضاً سياسة التفرقة العنصرية التي تتبعها تلك البلاد .

الكولونيل جيمس دي روتشيلد ابن ادموند دي روتشيلد رئيس الفرع الفرنسي لأسرة روتشيلد ومنشئ تل أبيب وعدد من المستعمرات اليهودية . وقد أصبح جيمس دي روتشيلد عضواً في

مجلس العموم البريطاني من ١٩١٩ - ١٩٤٥ ثم عينه تشرشل وزيراً للشؤون البرلمانية في حكومته .

الملازم أدوين صموئيل اليهودي الذي عين مديراً للرقابة البريطانية في حكومة تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعندما تأسست إسرائيل عام ١٩٤٨ عين مديراً للإذاعة الإسرائيلية .

المستر اسراييل سيف الذي لعب دوراً مجهولاً من أخطر الأدوار في الحياة السياسية البريطانية المعاصرة ، فقد أصبح فيما بعد رئيس لجنة التخطيط الإقتصادية والسياسية ، وهي كما يعلم المطلعون على طريقة عمل أجهزة الحكم في بريطانيا ، اللجنة التي توجه السياسة الإقتصادية والشؤون السياسية للوزارات المتعاقبة في الحكم .

حايم وايزمان : وهو لا يحتاج إلى تعريف « . . . » .

إلى أن يقول المؤلف :

« بدأت المفاوضات أخيراً في مؤتمر السلام فكانت مهزلة شبه مكشوفة أسقط فيها سادة المال العالميون القناع وبدأ نفوذهم جلياً .

ولسنا بحاجة إلى كبير جهد لتوضيح ذلك إذ يكفي أن نذكر أن رئيس الوفد الأميركي كان بول واربورغ وهو اليهودي الممثل الرئيسي لمجموعة المرابين العالميين - اليهود في أميركا - ولم يكن رئيس الوفد الألماني سوى شقيقه بالذات ماكس واربورغ » .

ثم يقول المؤلف : « يسهل علينا والحالة هذه أن ندرك كيف تحول مؤتمر السلام إلى مؤتمر استعماري شرس وكيف وافق دون تردد على كل القرارات ذات الغايات الخبيثة أو ذات النتائج الخطرة ... وفيما يتعلق بفلسطين فقد وضع مشروع الانتداب الانكليزي عدد من كبار الصهيونيين العالميين وعلى رأسهم :

البروفسور فيليكس فرانكفورتر : وهو يهودي صهيوني أصبح فيما بعد مستشاراً رئيسياً في البيت الأبيض في عهد رئاسة فرانكلين روزفلت •

السير هربرت صامويل : وهو أول مندوب سام في فلسطين بعد الاحتلال الانكليزي •

لوشيان وولف : المستشار الخاص لرئيس الوزراء الانكليزي لويد جورج » •

كل هذا يبين لنا كيف يتلاعب اليهود بالعالم كله وليس ذلك كله إلا حين نامت أعين الرجال وغفت قلوب المؤمنين ..

وهكذا يتبين لنا أن على المسلمين أن يحذروا أفراد المجتمعات المناوئة المعادية • إن الغالب على المجتمعات التي لا تؤمن بالإسلام أن تظل على جاهلية وكفر وبُعدٍ عن الخلق الكريم ولا تقيم للحق وزناً ولا ترعى للمثل الفاضلة حقاً ، ويغلب عليها المتسلطون الظالمون الماكرون ويساق فيها الضعفاء سوقاً إلى طاعة أسيادهم وأتباعهم ؛ ولذا كان عداؤها للمجتمعات الإسلامية قائماً على

معاداة الشر للخير والباطل للحق • والشر لا يرضى أن تعلق دولة الخير ، والباطل لا يطمئن إذا غلب صوت الحق •

ولذلك كان بين دعاة الإيمان ودعاة الباطل نزاع دائم وكان بين المجتمعات القائمة على الحق والمجتمعات القائمة على الشرور صراع مستمر •

وعلى المؤمنين أن يعرفوا هذا ويستيقنوه ويؤمنوا بأن الذين لا يقبلون كلمة الحق لا بد وأن يتعرض المؤمنون لكيدهم وعدائهم ، وقد يستثنى من هذه القاعدة أناس لم يتضح الحق لهم جلياً وهم ليسوا على طوية سيئة ، ومثل هؤلاء يتقبلون الحق ولا يعادونه • وقد قال تعالى في شأنهم إقامة للعدل في أعلى درجاته : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (١) •

وإذا بحثنا بالمجتمعات غير الإسلامية عن هؤلاء الذين لا يقاتلون أفراد المجتمع الإسلامي ولا يعادونه ، لرأيناهم في ندرة تامة ، ولو بحثنا في أيامنا الحاضرة لوجدنا الناس جميعاً يرمون المسلمين عن قوس واحدة ، فالمجتمعات الأوروبية والأميركية والنصرانية، باستثناء أفراد على ندرة تامة، والشيعية والاشتراكية

(١) سورة الممتحنة - الآية ٨ .

والصهيونية كل هذه ترى في الإسلام عدواً لدوداً تخشاه وتحمل له أشد الكراهية ، ويصدق على هؤلاء جميعاً قوله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر »^(١) ، ولعل في بعض المجتمعات البدائية - التي ما تزال على وثنيها ولم تتأثر برأي المجتمعات النصرانية - شيئاً من التسامح نحو الإسلام ، أو عدم حمل أي عداوة نحوه ، ولعل هؤلاء حين يسبق المسلمون إلى دعوتهم يستجيبون استجابة سريعة . أما غير هؤلاء في المجتمعات الحاضرة فهم كما ذكر الله أعداء ألداء .

وفي الموضوع نفسه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا »^(٢) .

الآية الكريمة نهت عن موالاته المشركين ونهت عن إلقاء المودة إليهم وبينت أن من يتخذ الكافرين أولياء فقد ضلّ سواء

(١) سورة آل عمران - الآية ١١٨ .

(٢) المتحنة : الآيتان ٢٠١ ، ٢٠٢ .

السييل ، ولم تقدم النهي خالياً عن بيان أسبابه ، ولم تطلب أمراً من غير إظهار حججه بينة قاطعة ، فالمشركون قد كفروا بما نزل على المؤمنين من الحق أولاً • وأخرجوا الرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق ثانياً ، لا لسبب إلا لإيمانهم بالله ربهم • والأمر الثالث : هؤلاء المشركون إن يظفروا بالمؤمنين ؛ فليس لهم ومنهم إلا العداة والحرب وبسط الأيدي بالقتل وبسط الألسنة بالشتيم • والأمر الرابع : إن هؤلاء المشركين لا يقرون ولا يستقرون حتى يعود المسلمون إلى الكفر •

والآية الكريمة التي نحن بصددتها تنهى المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم ، والمراد بالبطانة هنا — كما ذكرنا — اليهود والمنافقون وجميع أصناف الكفار •

* * *

نفسية الكافرين :

يقول الله تعالى في سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الفيلظ . قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » (١) .

بينت الآية الكريمة أسباب النهي بالكشف عن نوايا هؤلاء الأعداء ودخائل نفوسهم السيئة :

الأمر الأول قوله تعالى : « لا يألونكم خبالاً » : والخبال في الأصل : الفساد الذي يلحق الإنسان فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون . والمعنى لا يقصرون في فساد أمرهم ، بل يجهدون فيه ما وسعهم الجهد ، واختيار لفظه الخبال في الآية الكريمة للإشارة إلى أنه نوع من الفساد لا يصلح معه رأي ولا ينفع فيه تدبير .

(١) آل عمران - الآيات ١١٨ - ١٢٠ .

والأمر الثاني قوله تعالى : « ودوا ما عنتم » : والعنت دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة - أعتته : أوقعه في الهلكة - وقوله عز وجل : « واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم »^(١) أي لوقعتم في العنت أي الفساد والهلاك . وفي التنزيل : « ولو شاء الله لأعنتكم »^(٢) . معناه : لو شاء لشدد عليكم وتعبدكم بما يصعب عليكم أداءه كما فعل بمن كان قبلكم ، وقد يوضع العنت موضع الهلاك فيجوز أن يكون معناه ، لو شاء الله لأعنتكم أي لأهلككم . وعلى هذا فقوله تعالى : « ودوا ما عنتم » أي تمنوا ما يهلككم .

والأمر الثالث قوله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر » : أي ظهرت أمارات العداوة من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ، ولكن ما تخفي صدورهم من كيد وغل وحق وبغض أكبر مما ظهر منهم ، وهكذا تصرح الآية الكريمة أن قلوبهم تنطوي على أكبر أنواع البغض والكراهية . وقد ذلت الآية الكريمة بما يحض المسلمين على توقي هذه الشرور وتجنب مكر هؤلاء ؛ ذلك أن الأمر بيّن والحجج واضحة كالنهار إن كانوا يعقلون . قال تعالى : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

(١) الحجرات - الآية ٧ .

(٢) البقرة - الآية ٢٢٠ .

الأمر الرابع قوله تعالى : « ها أتتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » . وفي الآية الكريمة ما يدل على سلامة قلب المؤمن ووجه للناس ورغبته في الخير لهم جميعاً ، ولكن الكافر منطوق قلبه على اللؤم ، فهو يستغل سلامة قلب المؤمن لا يذائه وإيقاع الشر به . والآية تشير إلى سوء أخلاق الكافرين وما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة ، فالإنسان من طبعه أن يقابل الإحسان بالإحسان ، ولكن هؤلاء يقابلون الإحسان بالإساءة ، ولذلك يلام المؤمنون على حبهم وموالاتهم . قال الزمخشري : فيه توييح شديد بأن الكافرين في باطلهم أصلب من المسلمين في حقهم .

الأمر الخامس قوله تعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » . وفي هذا بيان لضعف نفوسهم وخسة ضمائرهم ، فهم ليسوا بالرجال الذين يعلنون حقيقتهم ، ولكنهم يظهرون إيماناً ويبطنون كفرأ ، ويبدون مودة ويسرون أشد أنواع العداوة ، وهذا الوصف وصف المنافقين واليهود ، وشأن هؤلاء أنهم يستحقون أن يموتوا بغيظهم ، وهم يشهدون بأم أعينهم رفعة الإسلام وعزة أهله . قال تعالى : « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

الأمر السادس قوله تعالى : « إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » . وليس هذا شأن الصديق المحب ، بل هو شأن العدو الموغل في عداوته .

وإن التأمل في الآيات الكريمة ليعجب غاية الإعجاب بأحكامها
ودقة وصفها وعمق بيانها لصفات هؤلاء الأعداء واستخراج خفايا
نفوسهم •

يبغون للمسلمين الخبال والشر والفساد وأن ينتقض أمرهم
ويذهب تديريهم ، وهم يسعون في ذلك دائبين لا يصيبهم كلل
ولا يعترهم ملل •

وهم يتمنون بعد فساد أمر المسلمين أن تصيبهم الشدائد
فتهلكهم وتقطع دابرهم •

وهم يكتنون في أنفسهم العداوة والبغضاء ، ويبدو ذلك
في فلتات لسانهم ، والمؤمنون يضررون لهم الخير ويظهرون لهم
المودة ويؤمنون بكتابهم وهؤلاء يحملون في قرارة نفوسهم مقابل
ذلك كرهاً وحقداً وغلاً •

وهؤلاء بلغت بهم الخسة أنهم يظهرون بمظهر الود والموافقة
للمؤمنين في إيمانهم وعقيدتهم ، فإذا خلوا إلى أنفسهم أظهروا
عداوتهم وأكل الفيظ قلوبهم • وهل يستحق أمثال هؤلاء إلا أن
يموتوا بغيظهم ••• إن الله عليم بخفايا صدورهم •

وهؤلاء إن أصاب المسلمين أدنى خير قتلهم الكيد ، وإن
أصاب المسلمين الشر طاروا من الفرح •• أينبغي للمؤمنين أن
يوادوا هؤلاء ويتخذوا منهم بطاتهم؟! والآيات الكريمة تحذر

الماضين والحاضرين من المؤمنين بأروع بيان وأوضح دليل • وليس للمسلمين بعد هذا كله أن يخشوا شر هؤلاء ، وحسب المسلمين الصبر والتقوى ، فهما الدرعان اللذان يقيان كل عادية ويدفعان كل كيد ، فليس الله بغافل عنهم ولا مهمل أمرهم • قال تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » (١) •

مآل طاعة الكافرين الخسران :

وقال الله تباركت أسماؤه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ، سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وما وهم النار وبئس مئوى الظالمين » (٢) • تؤكد الآيات الكريمة أن طاعة المؤمنين للكافرين من ورائها الارتداد إلى الكفر والانقلاب إلى الخسارة في الدنيا والآخرة وليس للمؤمنين أن يحسبوا للكافرين حساباً مهما عظم أمرهم واشتد سلطانهم ، ذلك أن للمؤمنين في نصر الله ما هو حسبهم ، ولهم في عون الله جل شأنه ما يكفيهم عن عون كل ما سواه •

(١) آل عمران - الآية ١٢٠ •

(٢) آل عمران - الآيات ١٤٩ - ١٥١ •

وكان "سائلاً" يسأل فيقول : كيف يتم عون الله وكيف ينزل نصره إذا اشتد الخطب واحلوك الظلام ؟ وتجب الآية الكريمة إجابة مصدرة بنون العظمة، ويتحول الخطاب من الغيبة إلى الحضور ليسمع المؤمن كلام ربه جل شأنه ليس بينه وبينه حجاب وليستيقن المؤمن أن الأمر واقع ليس له دافع . قال تعالى : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب »^(١) : كلمة تدوي في الكون كله يشهدها الكون ، ويشهد بها كل ذي عقل . . . قلوب الكافرين ممتلئة رعباً، وقلوب المؤمنين تحيط بها السكينة وتحفها الرحمة وإن حَزَبَ الأمر وأحاط الأعداء من كل جانب .

ولس مثال هذا الوعد لمؤمني اليوم فليست القلوب هي تلك القلوب وليس الرجال هم أولئك الرجال . . . لقد خالفوا عن أمره جل ثناؤه ولقد قال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .^(٢) .

وكأنني بسائل يقول : كيف يلقي الرعب في قلوب الأعداء وهم غالبون محصنون متمكنون ؟ وتجب الآية الكريمة : فتقول : « بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً »^(٣) . وهكذا تكشف الآية الكريمة عن حقيقة نفسية وقاعدة اجتماعية :

(١) سورة آل عمران - الآية ١٥١ .

(٢) سورة النور - الآية ٦٣ .

(٣) سورة آل عمران - الآية ١٥١ .

الجماعة الجاحدة لله المشتركة به جل شأنه ما لم ينزل به سلطاناً هي جماعة تكون أفرادها تكونا غير سليم ونشئوا نشأة غير صحيحة ، وهي جماعة غير متزنة وغير سالمة من الآفات النفسية والعيوب الاجتماعية ، ذلك أن المبادئ التي تقوم عليها والمناهج التي تنهجها ليست المناهج التي تصلح لفطرتها وليست بالذي يقوم أمرها •

أوضحت الآية الكريمة طابع مثل هذه الجماعة وكشفت عن خاصتها ، طابعها الرعب وخاصتها الجبن •

وإن هذا المعنى ليشاهد في كل جولة تتم بين المؤمنين وأعدائهم حين يكون للمؤمنين نصيب يسير من صفاتهم الأولى • إن الفضائل الكاملة من اعتدال واتزان وإقدام في مواطن الإقدام ، كل هذه ليست إلا لذوي الأمزجة المعتدلة والعقول الراجحة والأذواق السليمة التي آمنت بأن لهذا الكون إلهاً لا يصح أن يعبد سواه •

وهكذا يكون غير المؤمنين حثالة الناس وأسوأهم مزاجاً وأردأهم تفكيراً •

والمشكلة الكبرى التي نواجهها اليوم فتنة كثير من أبنائنا بالمدينة الغربية ، كيف يمكن أن يصلق على هؤلاء - الذين بلغوا ما بلغوا من معرفة بالكون وسننه في النواحي الكونية والنفسية والاجتماعية واستطاعوا بذلك خدمة الانسانية وتخفيف

آلامها - قوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » (١) .
 كيف يصدق عليهم أنهم ذوو قلوب مريضة وشخصيات ضعيفة
 وعقول هزيلة يملأ الرعب جنباتها ؟ والإجابة عن هذا ما قاله
 ألكسيس كارل - الطبيب العالم الباحث في معاهد روكفلر
 العلمية بنيويورك المتوفى عام ١٩٤٤ - إنه يوضح في كتابه :
 « الانسان ذلك المجهول » : أن المدنية الحاضرة لا تصلح لهذا
 الانسان لأنها تجهله جهلاً تاماً ، وهو يقول لئن كانت العلوم التي
 تتعلق بالجماد قد تقدمت فإن العلوم التي تتعلق بالانسان في تأخر
 مخيف . يقول : « إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة
 الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والامم
 الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والبهيمية
 أسرع من عودة غيرها إليهما . . . إن القلق والهموم التي يعانها
 سكان المدن العصرية تتولد من نظمهم السياسية والاقتصادية
 والاجتماعية . . . إننا ضحايا تأخر علم الحياة عن علوم الجماد . »
 إلى أن يقول : « إن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس
 دليل حاسم على النقص الخطير الذي تعاني منه المدنية العصرية ،
 وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا
 العقلية . . »

(١) الروم - ٧ .

إنه لموضوع جدير بدراسة المسلمين أن يعلموا إلى أين
تسير الحضارة الغربية ؟ وما النهاية التي تنتهي إليها . ومن
المؤسف جداً أن المسلمين لا يحصلون في هذا الموضوع وغيره
إلا على فتات ما تلقى إليهم الموائد الغربية ولا يستطيعون أن
يعرفوا الحقيقة إلا كما يريد هؤلاء أن يعرفوهم بها .

إن المسلمين قد انتهى أمرهم إلى ضالة دون ضالة أعدائهم
الذين لا يؤمنون بالله لسوء التربية التي يتلقونها ولفقدان الهدى
القرآني فنشئوا غشاء كغشاء السيل ونزعت مهابتهم من قلوب عدوهم
كما وصف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . . ومع كل ذلك
فما يزال العدو يخشى جانبهم ويرصد أعمالهم ويرقب أنفاسهم ،
وما تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق يقاتلون عليه لا يضرهم
من خلفهم ، وما تزال بدور الإيمان كأمينة تنطوي عليها النفوس
وتتظر ساعة انطلاقها لتمتد فروعها في الفضاء وتظل العالم
بأفياء السلام .

* * *

المسؤولية

أ - مفهوم المسؤولية :

قال الله تباركت اسماءه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (١) .

كل حكم بغير ما أنزل الله ، ثلثة تتصل بعقيدة الأمة ونظامها المحكم ورباطها المقدس والمعاني التي تحترمها والقيم التي ترفع من شأنها ، وإن أية يد تمتد إلى أي فقرة من فقرات هذا النظام أو أية مادة من موادها إنما هي يد آئمة مجرمة قد أحدثت خرقاً في قعر السفينة سيؤدي بركابها إلى الهلاك .

وإن السكوت على اليد الآئمة هو في نظر الإسلام إثم أكبر من إثمها وإجرام أبشع من إجرامها . إن هنالك نوعين من الجهاد : جهاد فردي غايته الشخص ، و جهاد اجتماعي غايته الجماعة دعوتها إلى الحق وحملها على الاستمرار في السير عليه . وإن دعوة الإصلاح الفردية مع ترك المجتمع بشروره هي دعوة كاذبة خاطئة .

(١) الحديد - ٢٥ .

قال الله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز » (١) . ذكرت الآية الكريمة البينات وهي الحجج الواضحة والبراهين القاطعة وذكرت الكتاب المنزل من عند الله التام في الحكم والأحكام ، وذكرت الميزان وهو العدل والحق الذي تدركه الأذواق السليمة وتشهد به العقول المستقيمة ، فإن تمرد متمرّد أو بغى باغ ليطغى في الأرض أو يظهر فيها الفساد كان الحديد الذي يقومه .

عقيدة التوحيد تحمل كل فرد تبعه حماية العقيدة ، والحاكم الحقيقي في الإسلام هو الله وحده جل شأنه وموقف الذين يقومون بتنفيذ القانون الإلهي في الأرض ، وهم أولو الأمر ليس إلا موقف النائب عن الحاكم ، وهؤلاء خلفاء الله في أرضه ، وكل من قام بالحكم في الأرض تحت ظل الدستور الإسلامي فهو خليفة الله (٢) جل شأنه والله جل شأنه هو الحاكم لا حاكم سواه .

(١) سورة الحديد - الآية ٢٥ .

(٢) يقول ابن تيمية (والله لا يجوز له خليفة ولهذا لما قالوا لابي بكر : يا خليفة الله قال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ حسبى ذلك بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره : قال النبي ﷺ : اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل . . .) .

قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » (١) .

والآية الكريمة تجعل خلافة المؤمنين هذه في الأرض خلافة عامة تشمل المؤمنين جميعاً ، فالوعد للذين آمنوا جميعاً لكل من صدق عليه وصف الإيمان ، والاستخلاف في الأرض لهم جميعاً وفي هذا المعنى إشارة واضحة إلى أمرين اثنين :

أولهما : إن هذه الخلافة لا يستبد بها فرد من المؤمنين ، بل هي مشتركة بينهم جميعاً ، فكل مؤمن خليفة من عند الله وكل واحد مسؤول أمام ربه عن هذه الخلافة ، كما جاء في الحديث : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) فليس أحد منهم في هذا الشأن وفي جميع الشؤون الاجتماعية بأحط منزلة من الآخرين .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد على أقصاهم » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

ومعنى تتكافأ دماؤهم : أي تساوى في القصاص والديات ولا يفضل شريف على وضع .

(١) النور - ٥٥ .

وهم يد على من سواهم : يد واحدة في التعاون والتعاقد
على الأعداء •

ويسعى بذمتهم أدناهم : أي أقلهم عدداً وهو الواحد وأقلهم
رتبة وهو العبد ، إذا عقد الذمة للكافر فعقده نافذ على
المسلمين جميعاً •

ويرد على أقصاهم : أي يرد الأقرب منهم الغنيمة على الأبعد •

الثاني : أن المسلمين في هذه الخلافة جماعة واحدة ويد واحدة
ويهم واحد ، وليس معنى اتقاء واحد من المسلمين ليقوم بشؤون
المسلمين أن الآخرين أصبحوا في حل من الاهتمام بشؤون الأمة
وضاعت مسؤوليتهم ، بل الجميع مسؤولون على سبيل التعاون
والتآزر والتضامن والتكافل •

إن تربية الإسلام هي تربية روح المسؤولية، وللقيادة مكاتبتها
وحبها واحترامها ، ولكن الإسلام أوجد الإنسجام الكامل بين
طاعة القيادة واحترامها وامثال أمرها ما دامت تمثل الفكرة
الإسلامية تمثيلاً صحيحاً ، وبين تنمية روح النقد وتحمل التبعات •

كانت تربية أصحاب رسول الله تربية الطاعة التامة للقيادة
ولكنها في الوقت نفسه تربية على القول بالحق والجهر به أينما
كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم •

ب - تربية المسؤولة :

قال الله تباركت أسماؤه : « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً » (١) .

حرص محمد ﷺ أن يعلم أصحابه أنه إنما هو بشر يرضى كما يرضى البشر ويفضب كما يفضب البشر ويخطيء ويصيب في الأمور الدنيوية كما يخطيء البشر ويصيبون مع عصمة الله له فيما يبلغه عن ربه ، كل ذلك كيلا يغالي أصحابه في تعظيمه فيرفعوه فوق مرتبة البشرية كما فعل أتباع الأنبياء السابقين . كان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه فيقول لهم : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري .

وفي سبيل هذه التربية لم يكن رسول الله ﷺ يقطع بأمر دون استشارة أصحابه ، ففي بدر يقف ﷺ حينما أتاه خبر مسيرة قريش إلى المسلمين فيستشير من معه من أصحابه فيتكلم أبو بكر وعمر ثم المقداد كلاماً حسناً فلا يكتفي ، ولكنه يظل ينظر إلى القوم ويقول لهم : أشيروا علي أيها الناس حتى يقوم سعد بن معاذ ، ويقول مقالته الطيبة ، فيقول عند ذلك ﷺ : « سه ، يا وأبشروا

(١) النساء - ١٧١ .

فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين • والله لكأني انظر إلى مصارع القوم » •

والرسول ﷺ يستشير أصحابه ويدع رأيه لرأيهم ففي بدر أيضاً يتكلم الحباب ابن المنذر بشأن المكان الذي ينزلون فيه ، فينهض رسول الله ﷺ ويتحول إلى المكان الذي يسير به الحباب رضي الله عنه •

ويتترح سعد بناء العريش فيوافق عليه الصلاة والسلام • وفي غزوة أحد يستشير رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة ، وكان رأي كثير من الصحابة ممن لم يكن له شرف القتال في بدر ، الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله حتى وافقهم عليه ثم ندموا وقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد • فقال ﷺ (ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته - أي درعه - أن يضعها حتى يقاتل) •

وفي غزوة الخندق قبل رسول الله مشورة سلمان بحضر الخندق وكان ﷺ يعمل إلى جانب العاملين •

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : « لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلد بطنه وكان كثير الشعر » •

وفي هذه الغزوة أرسل رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عباد فاستشارهما أن يصلح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين فقال له يا رسول الله : أهو أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء أمرك به الله ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء أصنعه لكم كي أكرس عنكم شوكتهم » . وحينئذ قال له سعد بن معاذ ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فتهلل وجه رسول الله ﷺ وقال له « فأنت وذاك » .

في كل هذه الأمثلة ترى تربية رسول الله لأصحابه واعترافه ﷺ برأيهم ورضاه بصراحتهم وجرأتهم في الحق ، وهذه التربية تنتج قادة يحملون التبعات ، لا أتباعاً يسيرون وراء كل ناعق .

ومن أمثلة هذه المواقف موقف الصحابي أبي حذيفة حين قال رسول الله في غزوة بدر: «من لقي منكم العباس بن عبد المطلب عم النبي - ﷺ - فلا يقتله فإنما أخرج مستكرها . فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا وترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف » .

إنه لموقف يتجلى فيه الصدق والصراحة والجرأة - وقد بلغت كل هذه غايتها - وما كان الأصحاب ليقفوا مثل هذه

المواقف لو لا ما عهدوا من رسول الله من حسن استقباله للقول الذي يندفع به صاحبه ، ما يدفعه إلا الصدق والإخلاص في القول . لقد استقبل رسول الله ﷺ تلك الكلمة بحلمه وعفوه ، وتدخل عمر ، بشدته وبطشه وخفف رسول الله من حدته ، وعاد صاحب الكلمة أبو حذيفة نادماً حزيناً وظل يقول حتى استشهد : « والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة » .

هكذا كانت تربية محمد ﷺ ، تربية لروح النقد والصرامة بالحق والجهر به تربية تهدف إلى إنشاء قادة يستطيعون أن يضطلعوا بأعباء القيادة حين تغيب القيادة . وهذه التربية هي القدوة الصحيحة الكاملة للتربية الإسلامية ، وكل تربية تبعد عن سبيل هذه التربية تعتبر تربية منحرفة بمقدار ابتعادها .

وفي هذه التربية يشعر كل فرد بأنه مسؤول عن الدعوة الإسلامية حتى ولو كان وحده . وكل فرد مسؤول عن وظيفته الخاصة في الجماعة كما هو مسؤول عن سير الجماعة كلها ، ولأدنى فرد في هذه الجماعة أن يقف أمام خليفة المسلمين ليُدلي برأيه وليعارض أي رأي أو قول أو فعل يجد فيه خطأ .

ج - تربية القادة لا تربية العبيد (١) :

••• منذ أكثر من ثلاثين عاماً حين كانت أكثر البلاد الإسلامية ترزح تحت نير الاستعمار الصليبي ، كان السيد محب الدين الخطيب يجاهد بقلمه ويصدر في مصر مجلة اسمها الفتح - كانت محرمة في كثير من البلاد الإسلامية - وكان من عاداته أن يتوج الصفحة الأولى من مجلته بحكمة مأثورة أو حديث شريف ليوقظ العيون النائمة ، وكان من ذلك حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام « أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين الإسلام من قبلك » أو كما قال عليه الصلاة والسلام . ومن ذلك الجملة التالية: المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة •• لقد فوجئت بهذه الكلمة ورأيت أنها بلغت أعماق نفسي • إن لدى المسلمين في مجموعاتهم العديدة طاقات هائلة لا تجد من يحسن توجيهها إلى السبيل المؤدية •• وكنت طالباً في كلية أصول الدين في الجامع الأزهر ، وكنت ألاحظ أن هذه الجامعة الكبرى في العالم الإسلامي والجامعات الإسلامية الأخرى ليس في ملكها أن تخرج للمسلمين قادة ولكنها تخرج أناساً عاديين لا يغنون في الشدائد غناء كبيراً •• أين أولئك الذين يتبعون في خطاهم ومسالكهم سيرة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام •

(١) محاضرة القاها فضيلة الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله - في صيف عام ١٣٩٦ هـ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وكنت أحسب أن وجود القائد هو القضية كلها • ولقد
دفعني ذلك إلى تتبع الموضوع بعض التتبع فقرأت ما يذكر عن
معاهد خاصة تنشأ لتخريج القادة ومعاهد أخرى لعباقرة العلم
الذين يرجى منهم أن يقودوا الحركة العلمية في مستقبل أيامهم ،
ومما يلفت النظر شكوى المشرفين على هؤلاء الطلاب من إفراطهم
في الدرس وزهدهم في النوم والراحة ••

وبعد تتبع الموضوع تبين أن القيادة ليست إلا شطر القضية
وشطرها الآخر الأمة بمجموع أفرادها ، ولا بد من شروط تتحقق
لتنتم استجابة الأفراد للقيادة : شروط في القيادة وشروط في الأفراد
أنفسهم ، وكل ذلك يؤدي إلى تفاعل متبادل بين الجانبين وإنسجام
بينهما ، ويمكن السير في سبيل آخر في التعبير : هنالك إلى جانب
القيادة الأولى قيادات أخرى عديدة كقيادة المعلم في غرفة درسه
والمدير في مدرسته والأم في منزلها والرئيس في مصنعه ودائرته وعالم
القرية في قريته ، وكل هذه القيادات لها أثر كبير في نجاح القيادة
الأولى وحسن سيرها • لقد دعا نوع عليه الصلاة والسلام قومه
أحقاباً من الدهر وما آمن معه إلا قليل ، أما محمد صلوات الله
وسلامه عليه فكان إلى جانب قيادته أفذاذ من الرجال تطأء لهم
الجباه وتخضع لهم الجبايرة •

لا بد من تمهيد يتم من قبل القيادات الثانوية ، وإن طلاب
الجامعات الإسلامية لعلى ثغرة هامة فليتقوا الله في هذه الأمانة •

ولاختيار هذا الموضوع سبب آخر هو أن المسلمين وضعوا موضع القيادة للعالم كله ، وطلاب الجامعات الإسلامية أجدد الناس بمعرفة مكاتهم والحرص على استيفاء شروطها ، قال تباركت أسماؤه : « كتتم خير أمة أخرجت للناس » (١) . وهذه الميزة تستلزم السمو والتفوق وكل ذلك يؤدي إلى وراثة الأرض والخلافة فيها وقيادة الناس وتصريف شؤونهم . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٢) .

إن المسلمين خير أمة أخرجت للناس ولذلك كانت لهم قيادة العالم بأسره ، وهم خير أمة لأنهم يحملون خير رسالة وأكرمها إلى الناس جميعاً ، ولقد فهم ربي بن عامر هذه الرسالة أوضح فهم حين وقف أمام رستم قائد الفرس رسولاً من قبل سعد يدعو إلى الإسلام قبل مناجزة القتال ، لقد قال رستم لربي إنما أخرجكم من دياركم الجوع ، فقال ربي : كان ذلك من قبل ولكننا الآن بعد أن بعث فينا محمد ﷺ جننا لنخرج الناس من عبادة الناس

(١) سورة آل عمران - الآية ١١٠ .

(٢) سورة النور - الآية ٥٥ .

إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . إنها كلمة تحمل في ثناياها سنن الرشيد كلها وأسس الخير جميعها .

إن مهمة المسلمين إنقاذ الناس من الشرك بأنواعه والوثنية بكل ضروبها وفي ذلك تعود للإنسان إنسانيته وكرامته ، وإن من لا يسجد لله وحده يسجد للناس وللطواغيت يسخرونه ويعبثون به ، ويفقدونه كرامته ، فإذا ترك المرء القوانين التي يضعها الطفأة ليستمسك بشرعة الله كانت النتيجة أمرين أولهما : الخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها . وثانيهما : الخروج من أنواع الظلم التي يضعها الإنسان ليستعبد أخاه الإنسان إلى العدل الذي شرعه الله لعباده .

المسلمون خير أمة لأنهم يحملون رسالة الإسلام إلى الناس جميعاً ، ويقول الباحثون النفسيون : إن الفرد الذي يحمل رسالة كريمة هو الفرد المتكامل في شخصيته ، والذي لا يحمل رسالة كالقصب الجوفاء قلبه خاوٍ وهو لا يعرف معنى للحياة ؟ إنه يشرك العجماءات في تسلط شهواته عليه وتملك غرائزه له ولكنه دونها لأنها تؤدي رسالة هي خدمة الإنسان وإن كانت لا تشعر بها وذلك ليس له رسالة في الحياة .

ويقول الباحثون الاجتماعيون أيضاً دور حمل الرسالة هو دور نهوض الأمة وصعودها ، ودور التخلي عن الرسالة هو دور

الانحدار والهبوط ، ولقد ظل المسلمون يصعدون برسالتهم حيناً من الدهر ثم تخلوا عنها شيئاً فشيئاً فعاشوا فترة يسرون بقوة الدفعة الأولى ، ثم كان دور الانحدار .

وإنه لأمر خطير جداً أننا نحمل اسم الإسلام ولكننا لا نحمل رسالة الإسلام ، ويدعي الغربيون أنهم حملة الرسالة اليوم وأن رسالتهم رسالة العلم ، ولكن صيحات من أطراف العالم المتمدنين اليوم أخذت تدوي في العالم كله تعلن أن هذا العلم فاقد للروح وأنه وسيلة للدمار ، وأن الأظمة التي وضعها البشر لإسعاد البشر لم تؤد إلا إلى شقائه ودماره . إن المدنية الغربية يئن أصحابها من أنواع الظلمات التي يعانونها وإنهم يطلبون الخلاص ، وإن كثيراً من علمائهم يشيرون إلى بلاد الشرق مهبط النبوات يرجون منها النجاة . . والذي يتاح له أن يزور تلك البلاد لا يعدم أن يصادف كثيراً من الشبان وغيرهم يتلهفون لمعرفة الحقيقة وينشدون راحة لقلوبهم وطمأنينة لنفوسهم . إن فطرهم تبحث عن الإيمان بالذي خلقهم ولكنهم لا يجدون من يهديهم إلى سواء السبيل .

فرسالتك أيها المسلم أن تؤمن بالله وأن تكون عبداً لله وحده لا عبداً لنفسك ، وأن تحقق معنى العبودية لله في قلبك فلا يكون لك في هذه الحياة الدنيا إلا همّ واحد هو : مرضاة الله وابتغاء وجهه ، وأحب أن أقول إنني ما استطعت وقد جاوزت الكهولة أن أحقق هذا المعنى في نفسي ولو كان لي ذلك لشعرت بكثير من

السعادة ولكنني مازلت أعالج نفسي وأجد العناء لأنني ما أخلصت في عبوديتي ، والمقياس في ذلك أن أطلب ما يطلبه الحق مني دون مبالاة برضا راض أو سخط ساخط . تعال بنا ليسأل الواحد منا نفسه ، ما غرضنا من الحياة ، وما رسالتنا ؟ والجواب أنا نعيش لأنفسنا وأغراضنا ، إن الرسالة التي تقدمها رسالة قاصرة بتراء هزيلة ، وإننا نحن المرين لا نخرج للناس رجالاً ولا نخرج أبطالاً مؤمنين حقاً ، والأسباب عديدة أولها وأكبرها نقص في أنفسنا ويتبع هذا نقص مناهجنا ووسائلنا ، ويأتي ذلك الوسط الذي نعيش فيه ويطبعا بطابعه وينفث فينا سموه وضعفه ومخدراته . .

ولا بد أن تكون الرسالة مهيمنة على القلب ومستحوذة على النفس كلها . ومثال ذلك إنسان هيمن حب العلم على قلبه فهو يعكف عليه عكوفاً ينسيه نفسه ومن حوله وينسيه طعامه وشرابه والملذات التي يطلبها الناس والمتع التي يفرط في السعي وراءها الكبار والصغار . وفي تاريخ العلم أمثلة كثيرة لهذا النوع من العلماء ، ولقد كان الرسل جميعاً من هؤلاء الذين غلبت على نفوسهم فكرة واحدة وهبوها حياتهم كلها وكان المصلحون الذين يتأسون سيرة الأنبياء من بعدهم من هذا النوع : كان صلاح الدين الأيوبي كالوالهة الشكلى فقدت وحيدها ، يتململ في فراشه ويتقلب فيه ولا يجد النوم سبيلاً إلى جفنيه ، كانت الفكرة التي غلبت على قلبه استرداد المسجد الأقصى واتزاعه من أيدي الصليبيين .

إن الطفل يمتص المعاني التي يستمع إليها من والديه
ويشاركهما في انفعالاتهما ، وتترك آهات الأم وحسراتها أثراً كبيراً
في نفس الطفل ، وهكذا تتكون المعاني الأولى في قلب الطفل . .
ولا يستمع الطفل في البيئة الإسلامية من أبويه أي معنى من معاني
البطولة والتضحية والجهاد وأعمال المسلمين في عصورهم الأولى .
ولكن الآهات والحسرات في سبيل الشهادات العليا التي تجر
وراءها النعم الرغيدة .

كان يجب أن يفرس حب هذه الرسالة في قلب الطفل منذ
نعومة أظفاره وذلك حين يستمع إلى أبويه يحدثانه بأخبار الأبطال
وسير الرجال كيف جاهدوا وكيف آثروا الرسالة على كل متع
الدنيا وكيف أحبوا الاستشهاد في سبيل الله وبذلوا الوسع لإدراكه ،
ولو كان الأمر كذلك لكان للمسلمين شأن آخر في العالم كله .

وكما يتأثر الطفل بما يسمع من أمه وأبيه يتأثر كذلك بما
يسمع من أستاذه ومربيه ويتأثر تأثراً قوياً بسلوك من حوله وقد
يعجب بأستاذه فيتممخص شخصيته ويتأثر خطاه ، والمدرسة في
مجتمعنا لا تختلف في الروح والجوهر عن المنزل كثيراً ، وليس
التنافس في المعاهد العلمية بالأعمال الطيبة والسير الحميدة والاتجاه
العلمي الصحيح ولكن بمقدار ما يحفظ الطالب من العلم حفظاً
يصدق عليه في الغالب أنه حفظ بلا وعي .

والوسط الذي يعيش فيه الطالب بكل وسائله على الأكثر
الغالب معادٍ لكل المعاني المثالية السامية ، ونتيجة ذلك أننا نجد
طلاب الجامعات في البلاد الإسلامية بعيدون كل البعد عن حمل
رسالة أو تبليغ دعوة إلا من رحم ربك ممن تغلبت فطرم السليمة
على كل العوائق فأرادوا السير ومضوا يتعشرون •

إن الصفة الأولى للقيادة حمل الرسالة وقد امتلأ بها قلب
القائد فكان أصدق من يحملها وأخلص من يمثلها وينشأ عن ذلك
صفات كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ - حامل الرسالة يتوجه وجهة واحدة :

صاحب الرسالة إذا هيمنت رسالته على قلبه خضعت غرائزه
ودوافعه جميعها لرسالته فهو يغضب ويخاف ويحب أبناءه ويجمع
المال ويدخره ويستعلي ويتواضع ، ولكنه يغضب في سبيل رسالته
ويخاف من أجلها ويحب أبناءه إذا أعانوه على حمل رسالته ، ويجمع
المال لينفقه في سبيل رسالته ويستعلي على أعداء الرسالة ويتواضع
لأصحابها • وبكلمة واحدة أصبحت قوى النفس ودوافعها جميعها
جنوداً طيعة خاضعة لقيادة واحدة وهذا ما يسمى بوحدة النفس
وخلوها من التنازع الداخلي وسلامتها من أنواع الصراع النفسي ،
وفي مثل هذه الحال يندفع صاحب الرسالة إلى غايته أقوى اندفاع
لا يعوقه صراع داخلي ولا يقف في سبيله عقبة في الخارج ، ويتوجه
بكل طاقاته إلى غايته كالسهم المريش وبذلك يكون أقوى إنسان
تعرفه البشرية •